الإسلام .. والغرب (*)
ما هو الغرب المُحاور؟

* الإسلام هو الإسلام.. لكن الغرب يحتوى الجغرافيا والسياسة والتاريخ والمصالح والثقافة.. هل يمكن أن نبدأ الحوار حول «الحوار مع الغرب» بتحديد لمفهوم الغرب أم نعتبره كله غرباً واحدا؟.

– لابد أن نحدد ماهو الغرب الذى نريد أن نحاوره، فليس الغرب مجرد منطقة إقليمية ولكن حينما نقول الغرب نقصد حضارة معينة وثقافة معينة ذات مقومات وخصائص.. وقديماً قال أحد الأدباء: الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا.. ولكن هذا الكلام قد يُقبل على عمومه، ولكن فى التفصيل: ماهو الشرق وماهو الغرب؟ فليس الشرق شرقاً واحداً، ولا الغرب غرباً واحداً..

ولكن إذا نظرنا إلى الغرب باعتباره صاحب الثقافة المهيمنة الآن والحضارة السائدة بطابعها المادي والنفعى الذى لا يهتم بالغيبيات ولا يقيم لحاكمية الله تعالى وزناً فى الحياة، وكما قال ليبولد فايس أو محمد أسد: «إن الحضارة الغربية وإن كانت لا تجحد الله البتة، فليس لله مكان فى نظامها الحالى» النظام الفكرى والثقافى خاصة.

نحن حينما نحاور الغرب نعتقد أنه حوار مع الآخر، والحوار مع الآخر ليس معناه أن يكون الآخر هو أنت، وإلا لم يكن آخر! فلابد أن يكون المقدس عنده غير المقدس عندك، لابد من خلاف.. ولا مانع أن يحاور الإنسان مُخَالفه، بل نحن مأمورون بهذا كما أمرنا القرآن بأن نجادل أهل الكتاب بالتى هى أحسن: **﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾**

[العنكبوت: ٤٦]

(*) حوار أجراه فى الدوحة الدكتور حسن على دبا، ونشر فى مجلة (المجتمع) الكويتية.

المقدس هنا وهناك

* هل هناك مانع من أن يحاور الإسلام الغرب؟ هل يمكن أن يكون اختلاف المقدس عند الإسلام عن المقدس عند الغرب عائقا فى قيام مثل هذا الحوار؟

– نحن لا نمانع من منطلق ديننا أن نحاور الآخرين مع اعتقادنا أننا مختلفون فى أشياء كثيرة منها أن المقدس عندنا غير المقدس عندهم، والمنطلقات عندنا غير المنطلقات عندهم، والأهداف عندنا غير الأهداف عندهم، والوسائل والمناهج عندنا غير الوسائل والمناهج عندهم.. رغم هذا فنحن مأمورون أن نحاور هؤلاء ونجادلهم بالتى هى أحسن.

من يقرأ القرآن الكريم فى الحقيقة يجده كتاب حوار فى الدرجة الأولى.. الأنبياء حاوروا أقوامهم، حوارات سجَّلها القرآن، حوار نوح لقومه فقالوا: ﴿**يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**﴾[هود: ٣٢].

حوار إبراهيم لأبيه وقومه كما قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ**﴾.

حوار موسى مع فرعون حوار طويل سجلته سورة طه وسورة الشعراء وغيرهما من السور.. بل أعجب من هذا حوار الله تعالى مع خلقه: تجد القرآن قد ذكر لنا أن الله سبحانه وتعالى حينما أراد أن يخلق آدم قال للملائكة: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾[البقرة: ٣٠].

وأراد أن يثبت لهم هذا فعمل امتحان مسابقة بينهم وبين آدم.. إلى آخر ما نعرف من قصة استخلاف آدم فى سورة البقرة فى القرآن.

بل أعجب من هذا حوار الله مع أعدى أعدائه إبليس: كيف آذن لإبليس أن يحاوره، قال: ﴿**مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ***

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [ص: ٧٥ - ٨٠] إلى آخر هذا الحوار الطويل بين إبليس وبين رب العزة سبحانه وتعالى..

فهذا يدلنا على أن للحوار مجالاً رحباً ومكاناً واسعاً فى الفكر الإسلامى وفى الساحة الإسلامية بدءاً من القرآن الكريم فالسنة النبوية فالتراث الإسلامى كله مليء بهذه الألوان من الحوارات المختلفة.

* * *

الحوار مع الآخرين فى السنة والتراث

*** هل يمكن أن نتعرف على صورة الحوار مع الآخرين فى ضوء السنة النبوية الشريفة؟**

- فى السنة حوارات مختلفة مع النبى ﷺ.. فالذين كانوا يأتون إليه ويسلمون ويسألونه «آلله أمرك بهذا..» ضرار بن ثعلبة وحديثه.. بل رأينا سؤال جبريل يسأل النبى ﷺ ما الإسلام، وما الإيمان، وما الإحسان وما الساعة، وما المسؤول عنها بأعلم من السائل؟ والسؤال عن أمارتها إلى آخره.. هناك حوارات شتى..

وهناك من يأتى النبى ﷺ يستأذنه فى الزنا، يقول له: أتحب أن يزنى أحد بأمك؟ يقول له: لا، بأختك؟ لا، بابنتك؟ لا، بعمتك، بخالتك وفى كل مرة يقول له كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ولا لبناتهم، ولا لعماتهم.. إلى هذا الحد كان النبى ﷺ يسمح بالحوار بينه وبين الآخرين. وينتهى بأن يخرجوا من عنده وهم راضو الأنفس، مطمئنى القلوب..

*** فى التراث الإسلامى ملامح مميزة للحوار بين المسلمين وغيرهم..**

- الحوار بين علماء المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى موجود فى التراث.. حوار الإمام الباقلانى مع بعض الملوك النصارى، وحوار مع الأحبار، ومع الرهبان.. وهناك رسائل وكتب فى التراث يمكن الرجوع إليها فى مظانها.

اختلاف الموقف الحضارى

*** الموقف مختلف: ألا ترون أن هناك فرقا بين الوضع الحضارى الحالى والوضع الماضى، كان المسلمون قوة، وكانت لهم حضارة، أما اليوم فهم الأضعف كيف يكون الحوار؟**

– المسلمون فى الماضى كانت لهم حضارة، وكانوا أصحاب الحضارة الأولى، فى العالم، وكانوا هم العالم الأول، هم الآن العالم الثالث، كما يقال، وربما ينسب بعضهم إلى العالم الرابع لو كان هناك عالم رابع! ولكن المسلمين أقوياء بثقافتهم، بأصول حضارتهم، برسالتهم العظيمة التى أكرمهم الله تعالى بها، برسالة الإسلام، هم أقوياء بهذه الرسالة فهم يملكون مالا يملك العالم كله، يملكون الرسالة العامة الخالدة التي تحمل كلمات الله الأخيرة للبشرية، لا يوجد دين يملك وثيقة سماوية سالمة من التحريف والتبديل اللفظى والمعنوى إلا المسلمون، فهم وحدهم هم الذين يملكون القرآن.. هذه هى الوثيقة السماوية الوحيدة المحفوظة بحفظ الله سبحانه وتعالى الذى قال: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[الحجر: ٩]، ﴿**لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[فُصِّلت: ٤٢].

الكتاب هو الكتاب المحفوظ حتى إن المسلمين يحفظونه كما كُتبَ فى عهد سيدنا عثمان، فقد تغيرت طرق الرسم والإملاء، لكن لم يجرؤ المسلمون على أن يغيروا رسم المصحف: فالصلاة تكتب بطريقة معينة «صلواة»، الربا «ربوا» هكذا.. كما كتبت فى عهد عثمان.. وكذلك يُقرأ هذا الكتاب كما كان يقرأ فى عهد النبوة بغُنه، ومَدِّه، وحركاته، وسكناته ولذلك فإن هناك علم التجويد، وعلَم مخارج الحروف، علوم تحافظ على القرآن الكريم كله صوتيا، كما حُفظ عليه كتابيا، بحيث يقرأ ويتلى كما كان مكتوبا، ويقرأ كما كان مكتوبا..

لا توجد أمة تملك كتابا محفوظا بهذه الطريقة إلا المسلمون، لأنهم

أصحاب الرسالة الخاتمة، الرسالة الخالدة.. فإذا كان المسلمون الآن فى فترات ضعف مادى ففى الواقع هم يملكون هذه الرسالة العظيمة.. والمسلمون على علاتهم، على ما بهم من ضعف، على ما يؤخذ عليهم من عيوب ومساوئ ننتقدها نحن عليهم، المسلمون هم أفضل أمم الأرض.. الأمة الإسلامية هى أفضل الأمم، من ناحية إيمانها بالله، من ناحية توحيدها، من ناحية حفظها للقيم الأخلاقية التى توارثتها عن النبوات الهادية فى مختلف مراحل التاريخ، الأمة الإسلامية هى أقل الأمم إغراقا فى المادية، أقل الأمم إغراقا فى المتع والشهوات: الجنس، الزنا، الشذوذ، أقل الأمم شرباً للخمور، والمسكرات، أقل الأمم إغراقاً فى المخدرات.. وهم أحرص الأمم على التمسك الأسرى، بر الوالدين، صلة الأرحام، الأسرة الممتدة الواسعة، ليست الأسرة النووية: الزوج وزوجته والأولاد الصغار، الأسرة تشمل الأولاد والبنات والأخوة والأخوات والعمات والأعمام، والأخوال والخالات، صلة الرحم باعتبار ذلك عبادة وفريضة..

الأمة الإسلامية على ما بها، ظل عندها قيم متوارثة، ترحم الضعيف، وتقرى الضيف، وتحمل الكل، وتُكسب المعدوم، وتعين على نوائب الدهر، كما كان يفعل نبيها ﷺ، وتفعل هذا من تلقاء نفسها ليس لأمر تجارى، فيمكن أن تحدث بعض الأشياء للمصلحة الاجتماعية، ليس انبعاثاً ذاتياً، ليس لأن هذا واجب فى ذاته.

أقول إنه رغم أن الأمة الإسلامية بها عيوب، وفيها نقاط ضعف كثيرة نُقرُّ بها هى أفضل الأمم ولاشك على وجه هذه البصيرة.

هل تخف صرامة الموقف الفكرى الإسلامى؟

* ذكرتم الآية الكريمة ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾[النحل: ١٢٥] وأجبتم على سؤالى: هل يمكن وضع مصطلح الحوار فى إطار مصطلحى الدعوة والجدل هل يعنى هذا الحوار تخفيف صرامة الموقف الفكرى الإسلامى والعقائدى، لتقريب الآخرين إلى الإسلام؟

– لو التزمنا بأدب الحوار كما شرعه الإسلام، لأدى ذلك من غير شك، إلى التقارب مع الآخرين.. فالإسلام يأمرنا فى هذه الآية التى وضعت أصول الدعوة والحوار أن ندعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن نجادل بالتي هى أحسن.. ونجد هنا فرقا فى التعبير: اكتفت الدعوة بالأمر بالحكمة والموعظة الحسنة، ولكنها عند الجدال لم تكتف بالجدال الحسن، وإنما أمرت بالجدال بالتى هى أحسن.. لماذا؟ لأن الموعظة تكون مع الموافقين فالموافق يكفى أن تعظه موعظة حسنة، ترقق قلبه، تحرك ساكنه، تُرغبه فى الخير، ترهبه من الشر.. يكفى أن تكون الموعظة حسنة.. ولكن الجدال يكون مع المخالف، والمخالف لا يكفى أن تجادله جدالاً حسناً، وإنما أن تبذل جهداً فى أن يكون جدالك بالتى هى أحسن.. أن تحاوره بأحسن الطرق، وأرق الأساليب، وألطف العبارات، حيث لو كان هناك طريقتان: طريقة حسنة، وطريقة أحسن منها وأجود، فلابد أن تستخدم الطريقة التى هى أحسن وأجود.. فهذا هو الذى أمر به الإسلام، ولذلك نجد القرآن وهو يعلمنا الحوار مع الآخرين ﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [سبأ: ٢٤] مع أنه متأكد أنه على هدى وأن غيره على الضلال. ولكن يريد أن يُقرِّب هؤلاء من ساحته.. يقول: أحد الفريقين منا لابد أن يكون مخطئاً والآخر على صواب، فلابد أن نبحث من المخطىء ومن المصيب، من المهتدى ومن الضال منا ومنكم، ثم يقول: ﴿ **قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ كان من الممكن أن يقول إما: لا تسألون عما عملنا ولا نسأل عما تعملون)، أو يقول (لا تسألون عما أجرمنا، ولا نسأل عما تجرمون).. المقابلة تقتضى هذا لكن نسب إلى نفسه ومن معه هذا (لا تسألون عما أجرمنا).

إن كنا نحن أجرمنا فأنتم لا تسألون عن إجرامنا، ولكنه لم يقل ولا نسأل عما تجرمون، حتى لا ينسب إليهم الإجرام ولكن (لا نسأل عما تعملون).

كل هذا نوع من التخفيف والتقريب وإزالة كل ما يوغر الصدور ويباعد الشُّقة بين الطرفين.. فهذا هو ما جاء به الحوار بالتى هى أحسن..

ولذلك نرى القرآن هنا يذكر مواضع الاتفاق وليس نقاط الاختلاف..

ولذلك فى حوار أهل الكتاب قال: ﴿ **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ** ﴾[العنكبوت: ٤٦].

وفى الآية الأخرى: ﴿ **قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ** ﴾ يذكر الأشياء المتفق عليها.. وهذا مبدأ مهم جداً: إذا أردت أن تحاور الآخرين فابدأ بالمتفق عليه ليكون ذلك سبيلا إلى أن نصل إلى قاسم مشترك بين الفريقين.. لا نأتى إلى الشىء المختلف فيه ونقول به، فلا يمكن أن نلتقى.. نقول: نبحث ماذا يجمع بينا؟ نحن معا نؤمن بالله، ولو إيمانا إجماليا، نؤمن بالآخرة والجزاء الأخروى، نؤمن بعبادة الله وبالقيم الأخلاقية، وبثبات هذه القيم، نؤمن بوحدة الإنسانية، وبأن الإنسان مخلوق مكرم، نؤمن.. نأتي بأشياء يمكن أن تجمع بين المختلفين..

فإذا وضعنا هذه الأشياء المتفق عليها يمكن أن تُقرِّب بين المختلفين بعضهم بعضا.. من جهتنا نحن المسلمين مستعدون للتقارب، المهم أيضا أن يكون عند الآخرين مثل هذه الروح.. فيعاملوننا بمثل ما نعاملهم به، ويقتربون منا بقدر ما نقترب منهم.. فإذا حدث اقتراب من الطرفين، فإنه يمكن أن يلتقيا على كلمة سواء، كما كان النبى ﷺ يدعو أهل الكتاب ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾[آل عمران: ٦٤] جوامع لا يمكن للعاقل أن يرفضها ﴿ **أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾، لست رباً لى، ولست عبداً لك، كلنا عبيد لرب واحد، وينبغى أن نوحد الله ولا نشرك به، فهذه هى الجوامع التي يدعو الإسلام إلى أن تكون هى ملاك الحوار وأساس بين الأطراف المختلفة.

لا تنازل عن أساسيات

* هل يقتضى نجاح الحوار بين فريقين مختلفين أن يتنازل كل منهما عن شيء ويتمسك بأشياء؟ أم أن الحوار يكون بحثا عن نقاط تقارب أكثر من تقديم تنازل؟

– هناك أشياء لا يمكن التنازل عنها، فنحن نحاول أن نذكر مواضع الاتفاق، ولكن ليس معنى هذا أن أتنازل عن أى شيء أساسى عندى.. حينما أراد الكفار من مشركى قريش أن يفاوضوا النبى ﷺ علي أن يتنازل عن عبادة إلهه مدة من الزمن، يعبد آلهتهم مدة، ويحاولون أن يقترب الفريقان بعضهم من بعض، لكن رفض هذا، وجاءت السورة الفاصلة الحاسمة ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** ﴾ لأول مرة يُخَاطب المشركون بهذه اللفظة ﴿ **يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ** ﴾ فالقرآن عادة حينما يخاطب المشركين يقول ﴿ **يا أيها الناس** ﴾، وأما اليهود والنصارى فيقول ﴿ **يا أهل الكتاب** ﴾.. أو ﴿ **الذين أتوا الكتاب** ﴾.. وهذا أيضا من الحوار بالتى هى أحسن: إنك تختار أرق الألفاظ وأقربها إلى قلب مُخَاطَبك.. إنما هو هنا قال ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ* لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾[الكافرون: ١-٦] بهذا التكرار وهذا التأكيد هناك أشياء تحتاج إلى حسم، لا يمكن أن يتنازل الإسلام عن عقائده وعن قيمة وعن فرائضه، وعن أخلاقياته.. التنازل غير وارد بالمرة ومع هذا ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾، لى عملى ولكم عملكم ﴿ **وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾[يونس: ٤١].

إنما اختصم الإسلام مع الشرك واصطدم به، ووقع ما وقع لأنهم قالوا: (لنا ديننا وليس لك دينك)، (لنا عملنا وليس لك عملك) (من حقنا أن نعبد الأصنام، وليس من حقك أن تعبد الله)، (من حقنا أن ندعو إلى الوثنية، وليس

من حقك أن تدعو إلى الإسلام) . . ورفعوا فى وجهه السيف والتعذيب . . فكان لابد أن يدافع الإسلام عن نفسه . .

التنازل عن أى مبدأ أو أى عقيدة أو أى فريضة أو أى قيمة، هذا غير مقبول بالمرة . . نحن نتحاور وكل منا يتمسك بمبادئه . . إنما أتنازل عن أساسياتى ليس هذا أمراً ضرورياً للحوار إطلاقاً، وإذا أريد منى هذا، فمعناه أن الحوار فاشل من أول الأمر.

الأساسيات المحكمات : محل اتفاق إسلامى

* ما هى الأمور التي تعنى الأساسيات فى نظركم والتى لا يمكن التنازل عنها فى الحوار مع الغرب؟ فلا يخفى ما بين المسلمين أنفسهم من اختلافات هل تكون الأساسيات محل اختلاف أصلا؟.

– نحن نتكلم عن الأساسيات المحكمات . . هناك أشياء يمكن أن يختلف فيها الناس أهى أساسية أم غير أساسية. فلا ينبغى أن نُصدر الأمور الخلافية عند الحوار، فأنا لا آتى لأدافع عن النقاب مثلاً، نقاب المرأة، لا، إنما أدافع عن الحجاب، فالحجاب أمر مفروض بنصوص القرآن والسنة وبإجماع الأمة . . إنما النقاب فيه كلام كثير . . فحينما أحاور الآخرين لا ينبغى أن أجعل قضية النقاب قضية أساسية، ومسألة الجهاد فى سبيل الله للدفاع عن الأرض والعرض والحرمات . . هذا أمر لا كلام فيه. إنما الدفاع للهجوم على العالم كما يصوره بعض الناس، هذا أمر ليس وارداً، ونحن هنا نتبنى ما تبناه علماء المسلمين المعاصرين الشيخ رشيد رضا، والشيخ شلتوت، والشيخ عبد الله دراز، والشيخ أبو زهرة، والشيخ الغزالى، وهؤلاء كلهم يتبنون أن الجهاد فى الإسلام للدفاع عن الدين والدولة والحرمات والأرض والعرض . . وليس لغزو العالم كما يصوره بعض الناس . .

هناك أشياء يمكن أن يختلف فيها الناس بعضهم من بعض، إنما نحن حين نريد أن نحاور الآخرين لابد أن تتضح لنا الصورة الإسلامية الحقيقية التى تدل

عليها المحكمات من النصوص، القواطع، يجب أن نفرق بين ما هو قطعى وما هو ظنى، الأشياء التى نستمسك بها ونقاتل دونها ولا نفرط فى ذرة منها هى القطعيات، أما الظنيات والاجتهاديات وما فيه القيل والقال، وما يمكن أن يخضع لاختلاف التفسيرات واختلاف الأفهام، وتعدد الاجتهادات، هذا لا ينبغى أن نضعه فى مقدمة الحوار بيننا وبين الآخرين.

كيف تكون الثقافة العالمية: قاسما مشتركا؟

* تطرح فى سياق بحث العلاقة بين الإسلام والغرب فكرة الثقافة العالمية لتكون قاسما مشتركاً فى الحوار بينهما.. وتعنى الثقافة العالمية الثقافة الكونية التى تتشكل من خصائص إنسانية تستوعب كل الثقافات الشرقية والغربية وتحيى الضمير الفردى وتحافظ على مصالح المجتمع فى الوقت نفسه، وهى ثقافة قادرة على النظر بوضوح إلى مابين الثقافات والمجتمعات.. من علاقة وتعريفها...

* هل ترون إمكانية وجود هذه الثقافة العالمية قاسما مشتركا للحوار؟.

– هذا وصف للثقافة الإسلامية فى الحقيقة، فالثقافة التى تحمل هذه الخصائص هى الثقافة الإسلامية، ولكن حسب ما هو قائم وما هو واقع لا توجد ثقافة كونية أو ثقافة عالمية.. بعض الناس يريدون أن يجعلوا من الثقافة الغربية المسيطرة ثقافة عالمية، وهذا ليس بصحيح، هى ثقافة عالمية بمعنى أنها منتشرة فى العالم، وسائدة ومسيطرة على الأفكار، ومسيطرة على الإعلام، وعلى أدوات التثقيف فى العالم، هذا صحيح، إنما ليست هى الثقافة العالمية.. هناك ثقافات مخالفة لها فى الشرق وفى الغرب، هناك الثقافة اليابانية أو الثقافة الصينية والثقافة الهندية، والثقافة الإسلامية، والثقافات الإفريقية..

لأن الثقافات فى الواقع تتأثر بالأديان، ثقافة أى قوم من الأقوام تتأثر بالعقائد السائدة، والقيم السائدة، والمواريث الفكرية والدينية عند كل قبيل من القبائل أو أمة من الأمم.. هذا ما قاله « ت. سى. إليوت » وغيره، إن تأثير الدين

فى الثقافة أمر مفروغ منه، فلا يمكن أن تكون هناك ثقافة واحدة مع وجود أديان مختلفة، إذا اعترفنا بتعدد الأديان فلابد أن نعترف بتعدد الثقافات.

فمن أجل هذا ليست هناك ثقافة عالمية كونية، إلا إذا أريد أن تكون هناك ثقافة مفروضة على الجميع. نحن ننطلق من تعدد الثقافات.. نحن وإن كنا نرى أن ثقافتنا هى التى يمكن أن تحقق ما ذكرته فى سؤالك «الثقافة التى تنظر إلى الإنسان وتحيى ضمير الفرد، وتحمى مصالح المجتمع، وتصل الأرض بالسماء، وتحقق القيم الروحية والقيم المادية..» هى الثقافة الإسلامية.. ونحن مع هذا إنما لا نفرض ثقافتنا بالإكراه على العالم، حينما كانت ثقافتنا هى السائدة وحضارتنا هى القائدة أيام ازدهار الحضارة الإسلامية وسعنا الثقافات الأخريات، لم يفرض الإسلام ثقافته على كل الناس وإنما ترك الآخرين وأديانهم لم يفرض عليهم العقائد الإسلامية ولا العبادات الإسلامية ولا الفرائض الإسلامية، ولا المحرمات الإسلامية ما فرض على الناس الزكاة، لماذا؟ لأن الزكاة وإن كانت ضريبة مالية، ولكنها عبادة دينية، ركن من أركان الإسلام، فلم يشأ أن يفرض على أهل الذمة الذين هم كما يقول الفقهاء من أهل دار الإسلام يعنى يحملون الجنسية الإسلامية أو المواطنة فى الدول الإسلامية لم يفرض عليهم هذا لأنه سيفرض عليهم عبادة، فهذا ينافى السماحة الإسلامية، من أجل هذا لم يفرض عليهم الزكاة، ولم يفرض عليهم الجهاد.. والجهاد دفاع عن الأرض والدار والدين والدولة، ولكن الجهاد أيضا – وإن كان دفاعا – فهو فريضة دينية، بل هو من أعظم ما يتقرب به المسلم إلى ربه، الجهاد فى سبيل الله، ولذلك لم يشأ أن يفرض عليه الجهاد، ومن أجل هذا فرض شيئاً بديلاً عن الزكاة من ناحية، وبديلاً عن الجهاد من ناحية وهو ما سُمى الجزية، وماهى الجزية؟ بدلا من الزكاة التى يدفعها المسلم، وبدلا من الجهاد فهذا يدفعه من ماله، وذاك يدفعه من دمه.. قال له: ادفع شيئا حتى تكون عضواً فى الدولة الإسلامية، وتتمتع بحمايتها يكون لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم..

الإسلام لا يفرض !

لم يفرض الإسلام على غير المسلم من يعيش فى داره، أن يحرم الخنزير الذى يحرمه الإسلام، أو يُحَرِّم الخمر الذى يحرمه الإسلام، مادام دينه يبيح له أن يأكل الخنزير ويشرب الخمر، قال له كل الخنزير واشرب الخمر، وربّ الخنزير واعصر الخمر، بشرط ألا تُرَوِّج ذلك بين المسلمين فى مناطقهم الخاصة.. حتى قال أبو حنيفة إنه لو أن المسلم أتلف خمراً أو خنزيراً لنصرانى، فإن عليه أن يتحمل ثمنه، لأنه مال متقوَّم عنده، فلا يجوز أن يعتدى عليه بالاتلاف.. إلى هذا الحد احترم الإسلام ثقافات الآخرين كما احترم دياناتهم وعقائدهم، وترك لهم كنائسهم وعباداتهم، فالإسلام يحترم الثقافات المتعددة، لأنه ما دامت هناك أديان متعددة فلابد أن تكون هناك ثقافات معبرة عن هذه الديانات ولعقائدهم، والقيم التى جاءت بها والعبادات والفرائض التى نادت ودعت إليها فهذا فرع عن ذلك.

* * *

الثقافة الإسلامية ثقافة وسطية

*** هل يمكن أن تكون الثقافة الإسلامية متسعا - بما لديها من خصائص إنسانية لاستيعاب وتجمع من أبناء الثقافات الأخرى؟**

- لو أردنا ثقافة تتسع للعالم حقيقة ويمكن أن تجمع الجميع، وهى ثقافة وسطية، ليست ثقافة روحية خالصة كبعض المذاهب المغرقة فى الجانب الروحى والجانب النسكى والعبادى، ولا ثقافة مادية خالصة تهمل الغيبيات، وتهمل السماء، وتهمل الآخرة، إنما ثقافة جمعت بين الروحية والمادية، مزجت بين المثالية والواقعية، بين الدنيا والآخرة، بين العقل والقلب، بين الفرد والمجتمع.. لو أراد للعالم ثقافة يمكن أن يلتقى عليها لقلنا إنها الثقافة الإسلامية.

ولكن جرت سنة الله أن الناس لا يمكن أن يلتقوا على ثقافة واحدة، لأنهم لا يمكن أن يلتقوا على دين واحد، وهذه سنة من سنن الله، وقد ذكر القرآن هذا

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجعلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحدَةً ﴾، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[يونس: ٩٩].. فلا يمكن أن يجتمع الناس على دين واحد، إنما اختلاف الناس هذا واقع بمشيئة الله، ومشيئته معبرة عن حكمته: اقتضت حكمة الله أن يختلف الناس، لأنه وضع للإنسان العقّل والإرادة، فما دام قد أعطاه العقل والإرادة، فكل واحد سوف يفكر لنفسه، ويريد لنفسه، سيختار الطريق.. فلا يمكن أن يلتقى الناس.. وهذا من أسباب التسامح الذى جاء به الإسلام؛ أنه اعتبر اختلاف الناس ناشئاً عن مشيئة إلهية من ناحية، ومن ناحية أخرى أن هذا الاختلاف الحساب عليه إن كان هدى أو ضلالة، صواباً أو خطأ، ليس فى هذه الدار، إنما فى الدار الآخرة﴿ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الحج: ٦٨ – ٦٩] الحساب ليس الآن، وإنما الحساب فى دار الحساب.

وهذا مما يخفف مسألة الاختلاف بين الناس، إن اختلافنا واقع بمشيئة الله، إذا كان أحدنا مهتديا والآخر ضالا، فالحساب إلى الله يوم الحساب ﴿ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١٥).

الحوار: فريضة وضرورة

* فى كتابكم [أولويات الحركة الإسلامية] ذكرتم أن الحوار معع الغرب فريضة وضرورة، وقلتم إنه حوار على الصعيد الدينى، وعلى الصعيد الفكرى، وعلى الصعيد السياسى. . ماذا تعنون بكل ذلك؟.

– لقد ذكرت فى هذا الكتاب أننا نعيش عالم تقارب بعضه مع بعض، حتى قال أحد الأدباء إن العالم أصبح قرية واحدة، نسمية «قريتنا الكبرى» هو لم يعد قرية كبرى أصبح قرية صغرى الآن، لأن ما يحدث فى أقصى العالم تعلم به بعد لحظات فى الطرف الأقصى الآخر، فتقارب العالم جدا، ولذلك لا يمكن أن

ينعزل فيه بعض الناس عن الآخرين، إذا كنا نريد أن نعيش بإسلامنا فلابد أن نتحاور مع الآخرين لنزيح الغشاوة التى غشيت على عقول القوم، نزيح ما على أبصارهم من غشاوة، وما على قوبهم من طبع، والشبهات التى استقرت فى أذهانهم طوال عصور مضت. . هناك من عهد الحروب الصليبية أشياء توارثها القوم عن الإسلام وعن القرآن، وعن محمد، وعن الحضارة الإسلامية، وعن الشريعة الإسلامية، وأشياء مغلوطة ومكذوبة، ولابد أن نبذل جهداً فى أن نلتقى مع هؤلاء القوم ونتقارب معهم ونبين له أن المسلمين ليسوا وحوشًا، والإسلام ليس غولاً مفترسا، ودعاة الإسلام ليسوا إرهابيين كما تصورونهم، هذا لا يمكن أن يتم فى عزلة عن هذا العالم، ومحادة لهؤلاء القوم، وإنما ينبغى أن يكون بالتواصل معهم، وبالحوار معهم، ولذلك ينبغى أن يكون حوارا على كل مستوى: ذكرت الحوار على المستوى الدينى مع القسس والأحبار والرهبان وهؤلاء الناس.

تجربة مع المستشرقين

* هل ترون أن الحوار مع رجال الدين من الغرب يمكن أن يُؤتى ثماره؟

– لقد لقيتهم منذ ثلاث سنوات تقريباً، وكنت أنا وفضيلة الشيخ محمد الغزالى فى زيارة إلى ألمانيا، والتقينا بالفعل مع عدد من المستشرقين ومنهم بعض القسس، والتقينا يوما كاملا، لقاء حوار، ووجدت – حسب ما لمست ولمس فضيلة الشيخ معى أيضا – أن هذا اللقاء كان له ثمرته: أن كثيراً من الشبهات زالت من الأذهان، اللقاء المباشر له فائدته: أسئلة وأجوبة. . فاعتقد أن هناك أناسا يمكن أن يجدى الحوار معهم، هناك أناس لاشك متعصبون لا يمكن أن يجدى معهم حوار. . هؤلاء كالذين قال الله فيهم: ﴿ **وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا** ﴾[الإسراء: ٤٥ – ٤٦] هذا الصنف موجود، لكن هناك صنف آخر، وقد نجتمع مع ثلاثين شخصاً قد يكون من هؤلاء الثلاثين عشرة جيدون أو حتى

خمسة، لا يخلو الأمر من أن يكون فى المجموعة أناس منصفون، فنحن نبحث عن هولاء المنصفين المتقَّبلين الذين يُحكِّمون المنطق. . ونحن رأينا من الغربيين كثيرين أنصفوا المسلمين وأنصفوا الثقافة الإسلامية والحضارة الإسلامية، والتاريخ الإسلامى وأنصفوا الصحوة الإسلامية المعصرة، ونحن نقرأ فى الصحف الآن صحفيين وكتابا من أهل الغرب يتكلمون كلاماً جيداً عن الإسلام. . هذا الكاتب الأمريكى الذى كتب عن أن الخطر الإسلامى وهم وليس حقيقة « جون سبوزيتو » وله كتاب معروف. . كثير من الكتاب الآن يعترف بفضل الإسلام، وسبق الحضارة الإسلامية، ويعترف للصحوة الإسلامية بأن إيجابياتها أكثر من سلبياتها، وأن المسلمين ليسوا خطراً، وأن الإسلام ليس خطراً، الإسلام خطر على الإلحاد وعلى الفساد، وعلى الاستبداد، ولكنه ليس بخطر، وهذا ما نقوله للناس: إن الإسلام رحمة، رحمة الله للعالمين.

فأنا أعتقد أن الحوار على المستوى الدينى مع القسس ورجال الدين، والمستوى الفكرى مع المستشرقين والكتاب الذين يهتمون بأمر الإسلام، والعروبة والشرق، ومع السياسيين الذين يصنعون القرار السياسى، فإذا استطعنا أن نصل إلى هؤلاء فهو خير. . وهذا ما حاوله أخونا د. حسن الترابى حينما ذهب إلى أمريكا وزار الكونجرس، والتقى بكثير من هؤلاء، واستطاع فعلاً أن يؤثر فى عدد منهم. . الذى ينظر إلى الأمر بمنظار العقل يمكن أن يؤثر فيه، الذى ينظر إلى الأمر بمنظار المصلحة. . هذا لا يمكن أن يرجع إلا إذا وجد المصلحة فى أن يسايرك فى الحوار. .

هناك أناس يفكرون بالعقل وبالمنطق سنستطيع التأثير عليهم. . على كل حال نحن نعتقد أننا أصحاب الحق، وأن منطقنا أقوى من منطق الآخرين، ولا نخاف على أنفسنا، ولذلك لا حرج علينا أن نعرض ما عندنا من بضاعة، وأن نحاور الآخرين بالتى هى أحسن، وأعتقد أننا الكاسبون من وراء ذلك إن شاء الله. وإن لم نكسب نكون قد أقمنا الحجة، وأبطلنا تعلات الآخرين كما قال الله

تعالى لرسوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] نحن علينا الدعوة، وعلى الله الهداية، علينا البلاغ، وعلى الله الحساب. . نبذر الحب، ونرجو الثمار من الرب. .

المادة والروح: كيف يلتقيان؟

* الغرب هو المادة، بينما الإسلام هو الروح والمادة، كيف يلتقى الإسلام مع جناح آخر هو المادة فقط؟.

– هذا ما أجبنا عنه حينما قلنا إننا مختلفون مع الغرب، ولكن كما نقول أيضا: الغرب ليس كله مادة، إذا أردنا أن نكون منصفين، فنقول إن الغرب تغلب عليه المادة، ولكن هناك أيضا جانب روحى فى الغرب، وهذا الجانب الروحى هو الذى صنع الحضارة، الحضارة لم يصنعها الماديون، بل صنعها رجال متدينون، وكما قال كارل لايل نحن نعيش على ظل لظل، فعلام يعيش من بعدنا. . نحن نعيش على ظل المتدينين، والمتدينون كانوا ظلاً لمن قبلهم، فماذا تصنع الأجيال القادمة؟.

هناك أناس تؤمن بالقيم علينا أن نبحث عن هولاء ونتحاور معهم، ثم علينا أن نقول لهم: نحن نكملكم، أنتم عندكم المادة وليس عندكم الروح نحن عندنا الروح، والروح التى لا تنكر المادة. .

إن ميزة الإسلام أنه يقول للغربى أنا عندى الرسالة التى تعطيك الروح ولا تفقدك المادة، تعطيك الإيمان ولا تسلبك العلم، تعطيك الآخرة ولا تحرمك الدنيا، تصلك بالسماء ولا تنزعك من الأرض. . فعندنا الرسالة المتوازنة هذه نستطيع أن نقول لهم هذا رغم اختلاف ما بيننا وبينهم.

دلالة خطاب ولى العهد البريطانى

* هل يمكن اعتبار خطاب ولى العهد البريطانى فى مركز اكسفورد

للدراسات الإسلامية بلندن – وأنتم عضو فيه – بداية عهد جديد فى العلاقة بين الإسلام والغرب.

قال: إن ما يربط بين الاثنين أكثر مما يفرق، وليس من مصلحة الاثنين العداء الخفى أو المكشوف؟.

– لا أزعم أنه بداية عهد جديد، ولكن هذا يؤكد ما قلته: أن الغرب ليس غرباً واحداً وأن الغربيين ليسوا كلهم على فكر واحد، وعلى درجة واحدة من العداء للإسلام، أو العداء للشرق.. لا.. هناك أناس تحرروا من هذه العقد، وأصبح لهم مواقف طيبة من الإسلام وأصبح عندهم نظرة أكثر شمولية، وأفق أكثر رحابة، وفهم أعمق للعلاقة بين الإسلام والغرب، والأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا من هؤلاء، والحقيقة محاضرته محاضرة جيدة، وينبغى أن نحييه على هذا، وننوه بهذا التوجه المتوازن المنصف الذى تحرر من الرواسب القديمة وتعامل مع المسلمين معاملة الند للند، فلا يتعامل بروح الحروب الصليبية القديمة، ولا بروح الاستعمار الحديث، لا، تخلصنا من العهدين معا: عهد الحروب الصليبية، ومن عهد الاستعمار وأصبحنا أمما حرة بعضها يتعايش مع بعض، فلابد أن يعرف كل منا الآخر معرفة جيدة ويستفيد منه، ويأخذ من الآخر ما ليس عنده: عندهم علم وتكنولوجيا نأخذ نحن العلم والتكنولوجيا، عندنا القيم والرسالة العظيمة نعطيهم هذه القيم، وتلك الرسالة، ولو أمكن أن يحدث هذا التفاعل لكان أمراً جيداً.

مراحل العلاقة بين الإسلام والغرب

* مرت العلاقة بين الإسلام والغرب بثلاث مراحل: العصرالعباسى وما كان به من ملامح معروفة، ثم العصر الأندلسى.. ثم فترات الحملة الفرنسية فالمرحلة المعاصرة.. هناك من يرى أنه لا انفصال بين المصالح الثلاث، وإذا كنتم مع هذا الرأى.. فماذا يميز المرحلة الحالية؟

– فى العصر العباسى كان للإسلام جولة عظيمة، وخصوصاً العصر العباسى الأول، العصر العباسى الثانى انحطت الدولة الإسلامية، أما فى العصر العباسى الأول أيام هارون الرشيد وعلاقته بشارلمان، أيام المأمون، أيام العصر الذهبى للحضارة الإسلامية كان المسلمون يتعاملون على أنهم أصحاب الدولة الأولى فى العالم، وكانوا يظهرون السماحة لغير المسلمين، كان الرشيد يقول للسحابة فى السماء: « شَرِّقى وغرِّبى وأمطرى حيث شئت فسيأتينى خراجك»، كانت الدولة الإسلامية هى القوة الكبرى فى العالم، وكانت تتعامل مع الغرب من هذا المنطق..

بعد ذلك للأسف حدثت أشياء، بعد أن ضعفت الدولة شيئا فشيئا جاء الغرب، جاءت الحروب الصليبية وما حدث فيها، وسالت الدماء للركب وقُتل عشرات الآلاف، وفى احتلال القدس والمسجد الأقصى، وبقى المسجد الأقصى تسعين عاماً فى يد الصليبيين، ويقيت الممالك الصليبية نحو قرنين، وحدث هذا الصراع الرهيب، وترك الرواسب فى الأنفس. . هذا ما ينبغى أن نعترف به. . ولم يكن الإسلام هو المعتدى، ولكن الغرب كان هو المعتدى، حتى أن الغربيين هؤلاء اعتدوا على مسيحيين من أبناء دينهم، وهم فى طريقهم ما تركوا لا مسلماً ولا مسيحياً ولا غير ذلك. .

ثم تحالف الغرب الكتابى – والمفروض أن الغرب مسيحى – مع الشرق الوثنى، مع التتار، تحالفوا معهم على غزو الديار الإسلامية، لقد أثبت التاريخ أن هناك تعاونا بين الفئتين، ودمرت الحضارة الإسلامية وعاصمتها بغداد. .

هذه مرحلة ينبغى أن تعرف، لأن هذه المرحلة تركت آثارها، فى نفوس الغربيين – كما قلت من قبل – وهى أيضا أفادت الغربيين: إن هذا اللقاء جعلهم يستفيدون من المسلمين كثيراً، رأوا ما لم يكن فى بلادهم، فبلاد المسلمين على ما كان بها من ضعف فى ذلك الوقت، كانت فيها منارات بغداد، والقاهرة، وغيرهما، كانت تعتبر منارات للعلم وللحضارة فى ذلك الوقت، فاستفاد الغربيون من هذا الأمر. .